البعد الحضاري لمفهوم الأمن في الخطاب الغيبي للقرآن الكريم

The civilizational value of security concept in the holy Qur'an metaphysical speech

La dimension civilisationnelle du concept de sécurité dans le discours métaphysique du Saint Cora

د. خالد مرزوق

جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة

تاريخ الإرسال: 2019-04-27–**تاريخ القبول**:2020-03-23-**تاريخ النشر**: 2021-12-31

ملخص

يهدف هذا المقال إلى إبراز القيمة الحضارية لمسألة الأمن والسلم من منطلق التأسيس لها في الخطاب القرآني المتعلق بجانبه الغيبي، ومدى فاعلية المنظومة العقدية عموما في إشباع حاجات إنسان العصر الحضارية في ظل متغيرات الواقع الذي يعيشه. فكان من نتائج هذا المقال أن سيرورة حالة الأمن تستلزم شروطا معنوية وأخرى مادية مساندة لها. وأن لا انفصام بين التربية الإيمانية والأمن، وكلاهما مبدأ أساس في التكامل الحضاري.

الكلمات الدالة: القرآن؛ الأمن؛ الحضارة؛ الخطاب الغيبي.

Abstract

The objective of this article is to demonstrate the civilizational value for securityin metaphysical speech of the Qur´an. and to demonstrate the effect of Islamic belief in civilizational constraction when reality changes. The results of this article are disclosed the function of the moral and material conditions for continued Security. This research also concludes that there is no separation between relgious education and Security. And they are important reasons for the cultural and the civilizational integration.

Keywords: Qur´an;security; civilization; metaphysical speech.

Résumé

L'objectif de cet article est de démontrer la valeur civilisationnelle de la sécurité dans le discours métaphysique du Coran. Et de démontrer l'effet de la croyance islamique dans la construction des civilisations dans les périodes de changement. Les résultats de cet article déterminent et analysent les conditions morales et matérielles nécessaires au maintien de la sécurité. Ils montrent qu'il n'y a pas de séparation entre l'éducation

religieuse et la sécurité. Ce sont des raisons importantes pour l'intégration culturelle et civilisationnelle.

Mots-clés: le Coran; sécurité; civilisation; discours métaphysique.

مقدمة

مسألة الأمن من أهمّ المسائل المرتبطة بالحياة كلها، الحياة التي لا تنتظم إلا بصون الأديان والعقول والأموال والأعراض والنسل، فحماية هذه الكليات الخمس بما نصت عليه الشرائع السماوية وسنته التشريعات الأرضية –وجودا وعدما- لهو عنوان الاستقرار والطمأنينة للكائنات ومصدر توازنها.وسيظل تحقيق الأمن مقصدا جوهريا تمليه الضرورات الاجتماعية، وتفرضه الدواعي الشرعية، وتستدعيه الفطرة البشرية لإنجاح عملية التسخير الإلهي للكون لخدمة الرسالة الإنسانية التي تمدّ بأوصالها لهذا الوجود الواسع. وإلا فمن أين لهذا الكائن الأكرم عند الله أن يشعر أن الوجود من حوله آمن بأمان الله، وآمن مادام سعيه في الحياة – والأمن مادتها- متوافقا مع النواميس التي تحكم حركتها المنتظمة؛ آمن بانتفاء الخوف والخيانة وما في حكمهما، وآمن بترسية الحفظ والطمأنينة وما شاكلهما.

بيد أن الرسالة الأمنية –حالة الأمن- الصادرة من المؤمِّن تلقاء الآمِن (المؤمَّن) تتشارك في تجسيدها كما هي، وكما يجب أن تكون عليه في الواقع، عوامل متعددة، بعضها قد يصدر من الشروط المفروضة على مسار الواقع الاجتماعي، كالعقيدة مثلا، أو كمصادر القوة الحاضرة بالفعل والتأثير، والتي من شأنها أن تتعاضد مع الشروط العقدية لإزالة ما قد يفرضه هذا الواقع من منابع القلق والاضطراب والخوف.

فغاية ما نرومه في هذه الصفحات أن نجلّي فاعلية العقيدة الإسلامية المنبثقة من أصولها المنزلة – بالأخص تلك النصوص المتضمنة معاني الغيب، ومدى أهميتها في ترسية التربية الأمنية واقعا حضاريا مشهودا، وكذا تفاعلها معها والمحافظة على مسارها الصحيح. أي بمعنى: هل من تجليات حضارية في تجسيد المسألة الأمنية في ضوء ما تفرضه المنظومة الغيبية في القرآن؟ وما درجة مقدرتها في ضمان سيرورة الموقف الأمني ؟.

1. في دلالة مصطلح (الأمن)

1.1 الأمن في اللغة

تدلنا المعاجم اللغوية على ثراء لغوي واضح لمصطلح (الأمن)، فهو يتسع لأكثر من معنى من الجذر الثلاثي أمن (ابن فارس، 1399هـ، مادة؛ وابن منظور، 1318هـ، ص 140-144): يقال أمن فلان يأمن آمنا، وأمنا إذا لم يخف، وقد أمنته ضد أخفته، ورجل أمِنتُه أي يأمن من كل واحد، وقيل: يأمنه الناس ولا يخافون غائلته.ومنه الأمان والأمانة نقيض الخيانة، كما يكون مصدر آمن يؤمن إيمانا وهو التصديق، والأمنة جمع أمين وهم الحفظة، أو الرجل الأمنة من يطمئن إلى كل واحد، ويثق بكل أحد.

واستأمن طلب الحماية، والأمين المستجير ليأمن على نفسه، ويطلق الأمين ويراد به القوي لأنه يوثق بقوته، والرجل الأمين أيضا هو الذي له دين، ومؤتمن القوم هو الذي يثقون فيه ويتخذونه أمينا حافظا.

يستشف من ذلك أن معاني الأمن السابقة مستقاة من جذر لغوي واحد (أ. م. ن)، وجامعها هو معنى عدم الخوف، كما في قوله تعالى: (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ)(سورة قريش، 4)، فيكون هذا المعنى الأخير هو الرابط المشترك بين معاني الأمن؛ ومنه يقع التصديق على معنى عدم الخوف من الكذب، والحفظ على معنى عدم الخوف من الضياع، كما تقع الطمأنينة على معنى عدم الخوف من الاضطراب والقلق، والثقة تأتي بمعنى عدم الخوف من التهم، والقوة بمعنى عدم خوف الضعف، وهكذا ترتبط سائر معانيه بهذا الجامع المشترك.

2.1 الأمن في الاصطلاح

أما من الناحية الاصطلاحية فإن من الباحثين من يرى أن معناه الجامع عند علماء اللغة متصل بالمفهوم العام لمصطلح الأمن، ذلك أن "عدم الخوف هو تعبير عن سنة إلهية في تحقيق حالة يستشعر من خلالها أن مصادر القلق والاضطراب لا وجود لها إلا في درجاتها الدنيا، وهي المصادر التي يمكن معها توقع مكروه في الزمن الآتي"(منجود، 1996، ص 44). وبمفهومه السياسي يكون معناه بصفة عامة هو ذات المفهوم اللغوي والأصولي، حيث يصير هو الآخر تعبيرا عن عدم الخوف، لكن عدم الخوف هنا يأخذ منحى خاصا، يقوم على تحقيق الطمأنينة في كل ما له صلة بالتعبير عن الوجود السياسي في المجتمع

المسلم، من خلال أمرين اثنين؛ أحدهما يظهر في التوازن بين من يمارس السلطة الشرعية، ومن يخضع لها بموجب مبدأ الطاعة في المعروف، وهذا الأمر بدوره يضمن التزام السلطة بحقوق المحكوم، وتوفير قنوات الاتصال بينهما. والثاني يقوم على كفالة الاستقرار والقدرة على مواجهة المفاجآت المتوقعة، وغير المتوقعة، دون أن يترتب على ذلك أي اضطراب في الأوضاع السائدة في المجتمع السياسي(منجود، 1996، ص63).

2. في دلالة مصطلح (الغيب)

1.2 دلالته في اللغة

يرد (الغيب) عند أرباب المعاجم اللغوية باستعمالات عدة، وتصاريف مختلفة: يقول ابن فارس:" الغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون، ثم يقاس؛ من ذلك: الغيب ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله، ويقال: غابت الشمس تغيب غَيْبَة وغُيوبا وغَيْبًا، وغاب الرجل عن بلده، وأغابت المرأة فهي مغيبة إذا غاب بعلها، ووقعنا في غيبة وغيابة أي: هبطة من الأرض يغاب منها،" (ابن فارس، 1399هـ، ص403). يبدو واضحا من مجموع هذه الأقيسة اشتراك استعمالات (الغيب) في معنى دقيق هو تستر الشيء وخفاؤه. ومنه يصح أن يطلق (الغيب) في اللغة على كل ما به ميزة الستر والخفاء.

2.2 دلالته في الاصطلاح

ومن جملة ما اصطلح على معناه: ما أسنده الرازي وغيره إلى الجمهور أن الغيب عندهم يراد به: "ما يكون غائبا عن الحاسة، أو ما يكون غائبا عن الحس والعقل غيبة كاملة، بحيث لا يدرك بواحد منهما بطريق البداهة ابتداء" (البيضاوي، 1988،ص18) وذكر القرطبي بأن الغيب: "كل ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر، و الصراط، والميزان، والجنة والنار"(القرطبي، 2003، ص163).ومن كلام المناطقة قول الكفوي: "هو ما لم يقم عليه دليل، ولم ينصب له أمارة، ولم يتعلق به علم مخلوق، ويضيف: وقيل: الغيب هو الخفي الذي لا يكون محسوسا ولا في قوة المحسوسات، كالمعلومات ببديهة العقل وضرورة الكشف" (الكفوي، 1419هـ، ص1061).

بإجالة النظر في مجمل هذه الأقوال فإنه يتبين لنا أن العلماء يتفقون على نفي الحس والمشاهدة عن مسمى الغيب، ويتضح هذا من الألفاظ الدالة على الغياب عن الحس،

وهي تحيل إلى المعنى اللغوي السابق، هذا من نحو. ومن نحو آخر فإن الفارق بين هذه الأقوال أن بعض أصحابها جعل الغيب مصطلحا عاما يتضمن كافة الأركان الإيمانية، سواء التي كان للعقل سبيل إلى فهمها أم لا، كما هو بيّن من كلام الكفوي وغيره، ومنهم من يقتصر على ما لا سبيل إلى فهمه إلا الخبر اليقيني على نحو ما ذهب إليه جمهور المفسرين.

3.2 شأن الحس والعقل في عالم الغيب

من المعلوم في علم المناهج أن لكل نوع من الدعاوى ما يناسبه من الأدلة العلمية، فنجد الحقائق المحسوسة تنسجم معها براهين التجربة والمشاهدة، الشيء الذي يصيرها في حكم الشهادة لا في حكم الغيب، ويحدّها عن الغيبيات التي لا سبيل للفصل فيها إلا الخبر الصحيح الصريح. وكذلك العقول يراعى فيها حدود استعمالاتها، فلا تتعداها إلى غيرها إلا أن تجد سندا لها خارجا عنها، أي أن العقول بشكل مستقل مفتقرة في إدراك الأشياء الداخلة في عالم الغيب إلى معلومات خارجة عنها، ذلك " لأنها وهي مستقلة لا تستطيع أن تتصور أو تتخيل أو تحلل أو تركب إلا في حدود الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس، وعالم الغيب لم يتصل بنا شيء منه عن طريق الحس كما ذكرنا، فلا تستقل بإدراك شيء منه" (حبنكة،1983، ص 25) .

غير أنه لا يعني ذلك إلغاء عمل العقل كليا في هذا المضمار، ولا توحي لنا التعريفات السابقة للغيب ترك العقل كي لا يسير في منهجه الطبيعي إلى كشف الحقائق، بقدر ما تشكل دافعا لتوظيفه في التأكد من صحة الإخبارات الغيبية، وفهم أصول العقائد عامة واستنباطها من أصولها المنزلة التي برهن العقل على صحة الركون إليها، سيما وقد أقرّت المذاهب الكلامية الإسلامية أن النظر الصحيح من جملة أسباب المعرفة التي يوصل بها إلى العلم بحقائق الأشياء (الماتريدي، 2007، ص142،141) .

ومن هنا فإن معنى عبارة (ما غاب عن الحواس) – وما قاربها في اللفظ – عند أصحابها يحمل على ما لا دليل عليه لا عقلي ولا نقلي أو ما لا سبيل إلى الإيمان به إلا الخبر اليقيني(البوطي، 1997م، ص 38،39).

فالغيب إذن؛ مصطلح يقع معناه على حسب ما يتعلق به من العلم به أو عدم العلم به، ويأخذ بذلك صورتين؛ إحداهما عامة تتجلى في ما يعرف بالغيب المطلق الذي

استأثر الله وحده بعلمه، ما أطلعنا عليه بأي دليل، وما لم يعرّفنا إياه ونظلّ على جهل به نحو قوله تعالى:(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) (سورة الأنعام، 59). وصورة أخرى نسبية، تظهر فيها بعض المغيبات أمرا إضافيا، نعلم منها ما قام عليها دليل النقل والعقل، ويشتمل إما على عموم الأركان الإيمانية المعروفة، وإما يقيد بجزء مخصوص منها.

وفي ضوء ما سبق فإن معنى الغيب الذي نصيغه : "هو كل ما غاب عن الحس من المدركات اليقينية المنصوص عليها سواء كان للعقل سبيل إلى فهمها وإثباتها من طريقه الخاص نحو وجود الله تعالى، أم لم يكن له من سبيل البتة، مثل مفاتح الغيب والآخرة وأهوالها وغير ذلك".

3. الأبعاد الحضارية لمفهوم الأمن في نطاق الغيب

يمكننا بإجالة النظر في نصوص القرآن الكريم المتضمنة ذكر الغيبيات أن نستشف عددا من الأبعاد الحضارية لمسألة الأمن والسلم، يمكننا تصورها من وجوه، أهمها:

1.3 افتقار ثقافة الأمن إلى تكامل عقدي صحيح

قد أشرنا إلى أن الأمن فريضة شرعية، وضرورة إنسانية وحضارية، وحتمية واقعية بمحض الفطرة والعقل، فهو لا يعدو أن يكون مطلبا لا مناص منه للكائنات عامة، وفي مقدمتها الإنسان المكرَّم، وهو – الأمن- مسألة أحوج ما تكون إلى شروط نزيهة متينة تكفل لها التحقق والديمومة. أعني – أولا- العقيدة الإسلامية الصحيحة بكل مضامينها وحقائقها وآثارها، بداية من حقيقة وجود الله ووحدانيته إلى الحقائق الأخروية كلها.

ومن البديهي أن نجد الإنسان ذاته هو مبعث هذه الضرورة الملحة لحقائق التوحيد ومقومات الإسلام الاعتقادية، مادام – أي الإنسان- هو الوعاء الأول والأخير الذي يستوعب طاقات الأمن المتعددة، بما يكفل له حريته ويتيح له إقامة حضارته على المنوال الذي يسعفه.

ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان هو النوع الوحيد الذي ارتبطت به سائر الأنواع المحيطة به، والتي تسير – طوعا أو كرها- في خدمته على وفق مراد الله لذلك، دون أن يخلّ هو بأمر تنظيمها وعمارتها، ذلك الاستخلاف في الأرض المستلزم بالأساس إزالة الخوف أو تحجيم آثاره.

ولكن هذا المخلوق مزوّد بمجموعة من الصفات والملكات ذات شرة كبيرة، ولها آفات عظام، وهي أسلحة ذات حدّيْن إن استعملت بحدّها المفيد تكاملت لديه القدرة على التنظيم الصحيح لهذا الكون والتعمير المطلوب والاستخدام الجيد النافع. وإن استعملها من حدّها الآخر، أو استعملهما معا في آن لم يورّث عندئذ – بالضرورة- الإنسانية إلا شقاء وفوضى هائلة.

يفهم ذلك من صفة العقل المبثوثة في الإنسان خاصة دون غيره، وما يتفرع عنها من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر أغوارها والوصول إلى ما وراءها، في حين هو مجهّز بمعنى الأنانية ، وما يتولد عنها من النزوع إلى الأثرة وحب التملك، وكذلك بثّ فيه الله تعالى بعض أسباب القوة ومقومات التدبير، وما يتفرع عنها من اللجوء إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بثّ فيه مجموعة من العواطف والأشواق والانفعالات تعدّ متممة لقيمة تلك الصفات وفوائدها، كالحبّ والكراهية والغضب وما إلى ذلك.

فمن شأن هذه الصفات والملكات الإنسانية أن تحمل صاحبها على أن يستعمل مثلا صفة القوة في ظلم الآخرين، وأن يشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان وبسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الأفراد والجماعات، وأن يتجه بما لديه من نزوع لحبّ التملك إلى أموال غيره يستلبها ويعثو بها. كما أن من نتائج الخطورة فيها أن تتسابق جماعات من الناس بدافع هذه الصفات في ميدان الصراع الدموي على السلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة، ولا أدل على ذلك من أحداث التاريخ المطردة ووقائع العالم المشهودة، فبدل أن تكون هذه الملكات عامل أمن وطمأنينة قد تنقلب إلى عامل شقاء واضطراب (البوطي،1997، ص66).

من أجل ذلك تأتي العقيدة الصحيحة المتكاملة عن الإنسان والكون والحياة لتكون صمام أمان للبشرية كلها، تقيه خطورة هذا المنقلب الوعر، العقيدة التي ترشده إلى حقيقته، ولا تترك تلك الصفات أن تسكره وتأخذ بلبّه، فيلزم منتهاه ولا يتمطى إلى مستوى الربوبية والألوهية، ولا يرتع في حياض الفرعونية التي ألقت بمنطقها الموهوم فانقلبت على نفسها ومضت وولّت.

العقيدة القائمة على الإيمان بوجود الله ووحدانيته، والإيمان باليوم الآخر المشعر يقينا أن لا سلطان حقيقيا في الكون غير سلطان الله، ولا قوة فيه تقهر غير قوته، وأن لا ملك يبقى غير ملكه، وأن الإنسان لا يملك من ذلك إلا ظلالا وآثارا ليس لها من حقيقة الصفات الإلهية إلا الاسم وحده، الإيمان الذي يهديه إلى أن الله هو الرقيب عليه، وأنه سيبعثه بعد الموت فيحاسبه على ما كسب أو اكتسب، ويحصي عليه مثقال ذرة من خيره وشرّه ثم يوافيه به ليراه،والشيء الذي يشعره في أعماق كيانه بوجوب تمثل العبودية الحقيقية لربّه، وما هي إلا أن تصيّر تلك الصفات الخطيرة فتصبح وسيلة عظمى لسعادته وسعادة بني جنسه، وتقوم بين الناس وشيجة الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم لله تعالى. ويستتب الأمن فيهم بكل معانيه بعد أن كانت تقوم بينهم منافسات ذميمة في ميدان تتصادم فيه القوى، وتتقارع فيه الأسنة ويقع المستضعف فيه ضحية لنزوات القوي وسكرة جنونه (البوطي،1997، ص67). فبهذا الاعتقاد الصحيح السليم تحفظ الكليات الخمس المعروفة، فيأمن الإنسان في دينه، وعقله، وعرضه، وماله، ونسله، ويستقر في أسرته ومجتمعه، وتعلو حضارته.

2.3 التفاعل الدائم مع الفعل الأمني المطلق

ولا يتم ذلك التفاعل المستمر مع فعل الأمن إلا باعتقاد لزوم الأمن لاسم الله (المؤمن)، لأنه مصدر الفعل الأمني المطلق، وإليه منتهاه. فكما لاحظنا فيما مضى حضورَ معنى عدم الخوف- بمعنييه اللغوي والأصولي- في مسمى الإيمان بمعنى التصديق، فيأتي هذا المعنى الأخير بمعنى عدم الخوف من الكذب، ومن التكذيب، نحو قوله تعالى: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (سورة يوسف، 17)، وتترابط المعاني كما قلنا ومنها معنى الحفظ، ليكون معنى (المؤمن) الذي يحفظ من الخوف، ولذلك كان أحد أسماء الله وصفاته لأنه الذي يؤمِّن عباده من عذابه ويحفظهم منه فلا يخافون. ولأنه مصدر الأمن للآمنين في مكان معين وزمان معين. مع التنويه إلى أن المؤمن قد يستخدم أدوات تحقيق الأمن بنفسه، وقد يستخلف فيها، وقد يجمع بين الأمرين معا، بصفة دائمة أو مؤقتة.

والاعتقاد السليم في اسم الله (المؤمن) من أكد مقتضياته استشعار الإنسان فعل الأمن والتفاعل مع آثاره من لدن الله، الذي إن شاء سلبه أسباب الترويع والتخويف، وأبدله بهما أمنا وطمأنينة. فلن يتاح له الأمن ما لم يدرك يقينا الذي يعزى إليه الأمن والأمان

على الحقيقة، بإفادته أسبابه وسدّ طرق المخاوف، إذ لا يتصور أمن إلا في محل الخوف ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك، ولا مؤمن مطلقا – وفق هذا القيد- إلا الله تعالى، وهو الغيب المطلق.

مثال ذلك: أنه على الأعمى الذي يخاف أن يناله هلاك من حيث لا يرى، أن الخالق والمقوّي لعينه البصرية التي تفيده أمْنا من هلاكه هو الله المؤمن، وكذلك الحال عند الأقطع الذي يخاف آفة تهلكه عليه أن يعتقد أن الله المؤمن هو الخالق ليده السليمة التي لا تندفع إلا بها آفتُه، وهي أمان له منها. وهكذا جميع الحواس والأطراف.

وصفوة الكلام في هذا الملمح: أن العبد ضعيف في أصل فطرته، وهو عرضة الأمراض والجوع والعطش من باطنه، وعرضة الآفات المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة من ظاهره، ولم يؤمنه من هذا المخاوف إلا الذي أعدّ الأدوية دافعة لأمراضه، والأطعمة مزيلة لجوعه، والأشربة مميطة لعطشه، والأعضاء دافعة عن بدنه، والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته، ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة، ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد (الغزالي أبو حامد، 2004، ص66).ومنه فإن الإنسان لا يحظى بنصيب وافر من الأمن إلا إذا اعتقد في اسم الله (المؤمن) أن لا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب هو منفرد بخلقها، والهداية إلى استعمالها، فهو المؤمن مطلقا تعالى ذكره.

ولا حظّ له أيضا من الاتصاف بوصف الأمن والتفاعل معه على الدوام ما لم يأمن الخلقُ كلهم جانبَه، وما لم يكن سببا في دفع الهلاك عنهم في نفوسهم ودينهم ودنياهم، كما في الحديث النبوي قوله عليه الصلاة والسلام:« والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه –أي شروره-» (النووي، (د.ت)، ص17).

3.3 استلزام شرط العدالة لسيرورة الموقف الأمني

يستيقن الإنسان – تبعا للملمح السابق- أن خلقه لم يكن عبثا، وأن قيمته البشرية يستمدها من وظيفته التي تتوقف على جملة من المهام التي أنيطت به، وأن وزنه في كفة الوجود نابع من القيم الإنسانية التي دعي إليها، قيم ترسوها عقيدته التي نشأ عليها وتربى في حضنها، فمثلا في غير موضع من القرآن نجد الحق سبحانه يؤكد على ضرورة إعادة الأموات أحياء (البعث) في اليوم الآخر، من ذلك بصورة القياس على ما في الكون،

يقول الله تعالى:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة فصلت، 39)، فمثل هذه الآية القرآنية تدفع الإنسان إلى التسليم فورا بالقدرة والعدالة الإلهية اللتين تظهر آثارهما جلية في المخلوقات الكونية العظيمة، وبذات هذه القدرة يقع البعث الذي من أبرز صور عالم الغيبيات.

يقول سعيد النورسي موضحا ذلك:" وحيث إنه ليست هناك مراتب قط في القدرة الإلهية الأزلية، لذا فالمقدورات هي حتما واحدة بالنسبة إلى تلك القدرة، فيتساوى العظيم جدا مع المتناهي في الصغر، وتتماثل النجوم مع الذرات، وحشر جميع البشر كبعث نفس واحدة، وكذا خلق الربيع كخلق زهرة واحدة سهل هين أمام تلك القدرة"(الصالحي، 2011، ص218). فالقدرة والعدالة الإلهيتان وإمكان البعث دليلان متلازمان، بمعنى أن من يؤمن بالله تعالى قادرا يتعين عليه الإيمان به عادلا مادام قد أيقن بإمكان إعادة الإنسان بعد موته، ذلك لأن "ماهية تلك العدالة المطلقة التي يشاهد آثارها في الكائنات لا شك أنها لا تقبل أبدا ولا ترضى مطلقا بعدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معا أمام الموت" (الصالحي، 2011، ص220).

بهذا المستوى من الفهم ترسّخ قيم العدالة والمساواة الممزوجة بقيم الإيمان الأخروي، يكتنفها فشوّ الأمن المأخوذ منه معنى الثقة والطمأنينة والسلام. كما نلحظها في الوقت ذاته - من زاوية نظر أخروية أيضا- ماثلة في تفعيل الأمن الأخلاقي ليشد من أزر الأسر والمجتمعات على حد سواء، وقد كان غاية ما يقصده الشارع الحكيم من ضرورة الاعتناء بالأخلاق هو جلب المنافع للناس ودفع المضار عنهم، ولأجل تحقيق هذا المقصد الشريف نجد النصوص الدينية تعرض فكرتها عن الغيب عرضا استدلاليا مستفيضا.

إن الجزاء الأخروي المعروض في القرآن بمشاهد مختلفة ومتكررة هو بحق مدعاة إلى ترشيد الأخلاق على مستوى الفرد والجماعة على حد سواء، فالفرد المؤمن تزول عنه بها أمراض كثيرة تغشى النفوس، وتسبب لها آلاما قد تبلغ بها مبلغ اليأس والقنوط، بل قد تبلغ درجة السعي للتخلص من الحياة، أو تحدث فيها قصورا وعاهات تقعد بها عن أداء المهام المطلوب من الإنسان أداؤها في مجمل حياته ، فمثلا : الرزق غيب مرتقب، وعندما ينفق المؤمن ما عنده على أمل ما عند الله من وعوده المنجزة، فإن هذا الإيمان

بما عند الله هو الذي يرجح عند المؤمن جانب العطاء عندما توسوس له نفسه بالإمساك والمنع، خصوصا مع التأميل في الحياة، والرغبة في سعة الثراء، والقلق من أحداث الزمان (الغزالي محمد، 2008، ص90).

وعلى هذا النحو، يفعل الإيمان بالآخرة فعله في إصلاح العلاقات الأسرية والاجتماعية، إذ لما تصيب أفراد الأسرة و أبناء البلد بأكمله المصائب، فإن الإيمان بالمعاد وما يتعلق به مثلا، هو الذي يشد من أزرهم ويقوي عزائمهم، سائرين على منطق اليقين المحض بأن ما أصابهم سيجدونه مدّخرا لهم في دار الجزاء، ولا يمكن بحال أن يضيع سدى، وإلا طغت الأنانية و الحقد، وعمت الفوضى والخديعة، وغير ذلك، بدلا من أسس التربية الحميدة المتمثلة في الإخلاص و المروءة والمحبة والاحترام الخالص.

يحتاج الإنسان فعلا إلى من يقول له:(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة الزمر، 10). أو من يقول له:(وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)(سورة البقرة، 272)، لأن مثل هذه التوجيهات الربانية والنبوية المتضمنة أمورا غيبية، تعد مصلا واقيا من جميع التوترات الشديدة التي تقع من جراء الاستبداد والتنازع على المكاسب الدنيوية، ورغبة كل طرف في الاستئثار بالمنافع على حساب الأطراف الأخرى، ولو أن الأشياء وزنت بموازين العدالة والغيب لكان لهذه العلاقات الإنسانية العامة شأن آخر من الاستقرار والإثمار.

4.3 مركزية العنصر المعنوي في الناتج الحضاري

إن من خلال ما قاله مالك بن نبي وهو يعطي تعريفا وظيفيا محددا للحضارة يمكننا أن نستشف مركزية البناء العقائدي في حركية الحياة عموما، ومنها استتباب حالة الأمن، وفي عملية الإقلاع الحضاري بصفة خاصة، قال فيما نصه: «إن الحضارة هي مجموعة الشروط المادية والمعنوية التي تتيح أدنى فرصة من العيش في مجتمع معين"(عاصي، 2008، ص24)، أي أننا ندرك مرة أخرى سر وجود عقيدة الغيب، كونه يرشد كل من يروم صناعة الحضارة إلى ضرورة الجمع بين المادة و الروح، ذلك أن العلم مهما تقدم لا يغني عن الإيمان، والإيمان الذي نحترمه هو الذي يعانق العقل وتزدان به الحياة.

لقد استطاع الإنسان في عصر النبوة وما بعدها أن يقدم أنموذجا متميزا عن الحضارة مفعمة بمعاني الأمن والسلم لمّا أولى هذه الحقيقة العناية الفائقة، ولا فرق في ذلك بينه

وبين إنسان هذا العصر ما دامت البواعث والغايات واحدة، وإن كانت ثمة فروق في الوسائل. فتمثل القيم الروحية المنبثقة من عقيدة الآخرة مما ليس منه بدّ، فمن كانت لديه مفاهيم ثابتة عن البعث والجزاء، والصراط والجنة والنار، يكون لزاما عليه أن يأخذ حذره بصرف كامل الإرادة للكفّ عن كل سلوك تُخشى عواقبه تلقاء نفسه والكائنات الحية الأخرى.

إن الإسلام يدعو إلى الموازنة، كي يجسَّد الأمن في حالة شعورية لدى الكل، وتكون الأمة المتحضرة فعلا تلك التي تَحسُّ بقيمة الأمن وتُحِسُّ به من حولها من الأمم الأخرى، وتنتفي المخاوف بينها، ويتحول ذلك كله إلى إدراك حقيقي يتمخض عنه سلوك يؤكد أن ثمة ما يُطمئن على السعي في الحياة والحركة لإعمارها وإصلاح الفاسد منها في مناحيها، ومقاصدها، ومنهاج الاقتراب منها.

فلذلك نجد القرآن كما يقول محمد الغزالي:"يذكر الحساب لإصلاح الدنيا لا لهدمها، ولتعليق الهمم بالأبقى والأجدى لا بالسراب الخادع، أما الماديون الذين يزحمون الأن مشارق الأرض ومغاربها، فما يعرفون إلا هذا التراب، وما يعولون إلا على أيامهم فوقه، وما يرمقون السماء بنظرة رجاء، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان"(الغزالي، 1999، ص198).

وإنه بلا شك يعني حال الحضارة اليوم التي اتسع علمها وضاق أدبها، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها، إنه يرى المأساة ماثلة لدى كثيرٍ من المتحضرين الذين ارتقوا علميا وهبطوا خلقيا، من حيث إن الفكرة عن يوم الدينونة غامضة أو معدومة لديهم، تماما كما أنهم لم يسمعوا يوما من يقول لهم:(وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)(سورة إبراهيم، 44 – 45).

وقد أفصح مالك بن نبي إفصاحا عن التلازم الفعلي بين أمن الإنسان حضاريا وبين ثنائية (المادة والعقيدة) بقوله:"العقيدة، الروح توجد علما، أما العلم فلا يوجد عقيدة ولا روحا، هذا العلم الذي ترى هو نتيجة للحضارة الغربية وليس سببا لها، ومتى انهار

الإنسان من داخله انتهى فيه كل شيء، ولا يغرنك الظاهر!"(عاصي، 2008، ص26). وفي هذا اتّقاء لتداعي وقائع الاضطراب وعدم الاستقرار في الواقع.

على أن الواقع المشهود اليوم بيّنٌ منه أن جمهرة البشر أخذت تستكين للتفكير المادي، وتبني عليه سلوكها في الحياة، وليست تأوي إلى ما وراء المادة إلا نادرا، وهذا الخلل من شأنه أن يكلّف العالم خسارة فادحة نتيجة القلق والاضطراب المتسرّبيْن إلى كيانه، وتحسبا لاستفحال الخطر وزيادة الضرر على الضمائر أن تتوجّه إلى وجوب رد الاعتبار للعقيدة الروحية التي يؤسس لها الإسلام من منطلق دعوته إلى الإيمان بالغيب عموما والآخرة خصوصا، لأنه حيثما غلبت الحيرة والقلق في العالم فهناك أمر واحد تكون منه على أتم اليقين؛ هو أن العالم يبحث عن عقيدة روحية، لأنه يضيق بالحاضر وينظر إلى المستقبل وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور إن لم يكن موضع رجاء ومرجع أمن وإيمان.

خاتمة

وفيها أبرز ما يستخلصه الباحث في هذه الورقة البحثية من نتائج، أهمها:

- مصطلح (الأمن) ذو ثراء لغوي، إذ تتعدد معانيه المشتقة من جذر واحد (الألف والميم والنون). ومعنى عدم الخوف هو الرابط المشترك بينها.
- استتباب الأمن بكل أبعاده الظاهرة والخفية يقتضي لزوما شروطا عقدية وأخرى مساندة لها.
- الأمن والإيمان سيان باعتبار مادة اشتقاقهما، وكلاهما شرطان ضروريان في الانبعاث الحضاري.
- لا مناص من اجتماع الشروط -المادية والمعنوية- لإعداد الإنسان المثال، وبناء الحضارة المثالية، وإنّ فقْدَها فقْدا كليا أو جزئيا يجعل الإنسان يفقد تصوره لحقيقة وجوده الذاتي، ولتناغمه مع قوانين الوجود كله.

المراجع

1. ابن الأثير، 1318هـ النهاية في غريب الحديث والأثر، المطبعة الخيرية، القاهرة- مصر.

2. البوطي محمد سعيد رمضان، 1997.كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، دمشق.

3. البيضاوي ناصر الدين، 1988. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

4. حسن حبنكة عبد الرحمن، 1983. العقيدة الاسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق.

5. الرازي فخر الدين، 1991. المحصل في علم الكلام، تحقيق حسن أتاي، مكتبة دار التراث، القاهرة.

6. الرازي محمد فخر الدين، 2000. مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت.

7. الزمخشري محمود جار الله، دت. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت.

8. صالحي إحسان قاسم، 2011.سعيد النورسي: عملاق الفكر الديني في العصر الحديث، دار النيل، القاهرة، مصر.

9. عاصي إبراهيم، 2003. الحقيقة والمآل: حوار مع مالك بن نبي، مركز التربية الإسلامية، الجزائر.

10. العسقلاني أحمد بن علي، 1379هـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت.

11. الغزالي أبو حامد، 2004. المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، دار الكتاب الحديث، القاهرة.

12. الغزالي محمد، 1999. مائة سؤال عن الإسلام، مكتبة رحاب، بور سعيد، الجزائر.

13. الغزالي محمد، 2008. ركائز الإيمان بين العقل و القلب. دار الشروق، القاهرة، مصر.

14. ابن فارس أحمد، 1399هـ معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، دمشق.

15. القرطبي أحمد أبو عبد الله، 2003. الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، الرياض.

16. الكفوي أبو البقاء، 1419هـ الكليات في الفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت.

17. الماتريدي محمد أبو منصور، 2007. كتاب التوحيد، دار صادر، بيروت، مكتبة الارشاد، استنبول.

18. منجود مصطفى محمود، 1996. الأبعاد السياسية لمفهوم المن في الإسلام، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، القاهرة.

19. ابن منظور محمد، (د.ت). لسان العرب، دار صادر، بيروت.

20. النووي يحي بن شرف، (د.ت). شرح النووي على صحيح مسلم، المطبعة المصرية، القاهرة.